وانتهى بالفرد، او بدأ بالسياسة وانتهى بالاخلاق. والفرد هنا هو «المختار» الذي تخلى عن المصلحة الوطنية من اجل مصالحه الذاتية، ولانه «تخلى» يلقى عقابه ويذهب في «الجنون»، يفقد عقله. مثل هذه النهاية تقول اشياء كثيرة بل تكاد تغير معنى العلاقات في الرواية. فعندما يفقد «المختار» عقله بسبب خيانته يصبح عظة ومثلا لشعبه: من يخن يصب بالجنون وتقع عليه اللعنة. وهذا يعني ان «المختار» رجل سيء اي انه فرد وحالة خاصة ولا يعبر عن ممارسة طبقية او عن طبقة. مثل هذا القول يقع في النزعة الوعظية - الاخلاقية! فهو:

اولا: يحذر الخونة من الجنون، وثانيا: يضع المختار خارج طبقته.

هل تصاب طبقة بالجنون؟ اي ان «فيصل»، بالرغم من محاولته رسم الشرط الفلسطيني بوضوح وواقعية، وقع في شرك نهاية روايته. اكثر من ذلك ان «اخراج المختار من طبقته» واحلال الاخلاقي محل السياسي (التلويح بالجنون) ينزع الى الغاء الصراع الطبقي في الصراع الوطني وينزع ايضا الى «توحيد الشعب» عن طريق التبشير الاخلاقي اي: «المصالحة الطبقية». لهذا السبب، او الاسباب، اقول ان نهاية الرواية كسرت منطق الرواية وخالفت المنطق التاريخي نفسه. ولهذا السبب او الاسباب - ربما - اغفل «فيصل» التعرض بشكل صريح لطبيعة العلاقة التي كانت قائمة بين الفلاحين المقاتلين والقيادة السياسية، ومع انه كتب جملا سريعة عن الضرائب والاستغلال اللذين يثقلان كاهل الفلاحين، الا ان هذه الكتابة لم تصل الى ما كان ينبغي الوصول اليه في رواية تعالج موضوعا وطنيا - تاريخيا. وهنا لا اريد من الكاتب ان يقدم دراسة تاريخية - ايديولوجية بل احاوره في المركبات الاساسية التي تقوم عليها روايته. ان هذا الاغفال او الاقتراب السريع من شكل العلاقة القائمة بين «الفلاح والقيادة» جعل الرواية تقترب احيانا من الرواية الطبيعية اي تصف العلاقات الاجتماعية بشكل محايد.

الى جانب هذا النقد لـ «نهاية رواية» سأتعرض، بشكل موجز وسريع، الى نقاط اخرى. استعمل «فيصل» شخصية «الراوي» ليحكي صورة الماضي وصورة ما حدث، ومن الناحية النظرية، فإن استعمال الراوي يسبغ بعدا فنيا على السرد التاريخي، لان وجوده ينتج اثر التبعيد اي يضع الحدث في زمانه، ويبدو الماضي كماض، ويمنح السرد مصداقية. مع ذلك، وعلى الرغم من الامكانية الفنية التي يعطيها الراوي كوسيط في بناء الحدث وتغيير علاقاته والتدخل فيه، فإن كاتب «بير الشوم» لم يستخدم هذه الامكانات كما يجب، اقول «كما يجب» لان فيصل حاول، في حدود معينة، استعمال وظيفة الراوي: (ص:١١٦،٩٥،٨٨،٢٥...). نقطة اخيرة ترتبط بـ «رمز البئر» ودلالته في القرية. اعتقد انه كان باستطاعة فيصل استعمال دلالة البئر بشكل اكثر غنى وابعد عمقا. فالبئر، كما يقول المؤلف، ليس بئرا بل «حامل معين» يشير الى حدود الوعي في القرية والى اساطيرها واوهامها وعجزها ايضا اي انه مرآة معينة لوعي الذاكرة التي اعطته دلالته. ويمكن ان نقول هنا: ان علاقة الذاكرة الفلاحية بالـ «بئر» هي علاقتها بعجزها الموضوعي؛ وتحررها من وهم او اوهام البئر يوازي تحررها من خوفها واوهامها، مع ذلك فكاتب «بير الشوم»